﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: 110]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

الانتقالُ مِنْ سَعَةِ علمِ الخالقِ إلى محدوديَّةِ علمِ المخلوقِ

في مناسبةِ الآيةِ لما قبلَها وجوهٌ:

أحدُها: أنَّهُ تعالى لمّا بيَّنَ كمالَ كلامِ اللهِ أمرَ نبيَّهُ ﷺ بأنْ يَسْلُكَ طريقةَ التَّواضعِ، فقالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآيةَ[1].

والثّاني: لمّا كانوا ربَّما قالوا: ما لَكَ لا تُحدِّثُنا مِنْ هذه الكلماتِ بكلِّ ما نسألُكَ عنهُ حيثُما سألناكَ؟! وكانوا قد استنكَروا كونَ النَّبيِّ بَشَراً، وعلَّقوا إيمانَهم باللهِ تعالى بأمورٍ سألوهُ الإتيانَ بها، وكانَ قد ثبتَ بإجابتِهم عنِ المسائلِ على هذا الوجهِ أنَّهُ رسولٌ - أمرَهُ سبحانَهُ أنْ يُجيبَهم عن ذلكَ كُلِّه بما يردُّ عليهِم غَلَطَهم؛ إرشادًا لهُم إلى أهمِّ ما يَعْنيهم، وهو التَّوحيدُ، فقالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآيةَ[2].

والثّالثُ: انتُقِلَ بهذه الآيةِ مِنَ التَّنويهِ بسَعَةِ علمِ اللهِ سبحانَهُ، وأنَّهُ لا يُعجِزُهُ أنْ يوحيَ إلى رسولِه بعلمِ كلِّ ما يُسألُ عنِ الإخبارِ به - إلى إعلامِهم بأنَّ الرَّسولَ لم يُبْعَثْ للإخبارِ عنِ الحوادثِ الماضيةِ والقرونِ الخاليةِ، ولا أنَّ مِنْ مُقتضى الرِّسالةِ أنْ يُحيطَ علمُ الرَّسولِ بالأشياءِ، ولكنَّهُ بشرٌ عِلمُهُ كعِلمِ البشرِ، أوحى اللهُ إليه بما شاءَ إبلاغَهُ عبادَهُ؛ مِنَ التَّوحيدِ والشَّريعةِ، ولا علمَ لهُ إلا ما علَّمَهُ ربُّهُ[3].

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 503.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 153.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 54.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوحَىٰٓ﴾: (وحي) أصل يدلُّ على إلقاء عِلمٍ في خَفاءٍ أو غيرِه إلى غيرِكَ[1]، ويقالُ لكلام اللّه الَّذي يُلْقَى إلى أنبيائِه وأوليائِهِ: وحْيٌ، وهو أنواعٌ ثلاثةٌ كما دلَّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: 51]، فالوَحْيُ: إمّا بواسطة رسولٍ مُشاهَدٍ تُرى ذاتُهُ ويُسمَعُ كلامُهُ، كتبليغِ جبريلَ عليه السلام للنَّبيِّ ﷺ في صورةِ رجلٍ معروفٍ، وإمّا بواسطة رسولٍ مَلَكٍ بصورة غير مرئية لها أماراتٌ ويُسمعُ كلامهُ، وإمّا بسماعِ كلامِ اللّه مِنْ غيرِ معاينةٍ؛ كسماعِ موسى كلامَ اللّه، وإمّا بإلقاءٍ في الرّوعِ، وإمّا بإلهامٍ، ومِنَ الإلهام قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، وإمّا بتسخيرٍ، كما في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: 68]، أو بمَنامٍ، فالإلقاءُ في الرّوعِ، والإلهامُ، والتَّسخيرُ، والمنامُ دلَّ عليها قولُهُ: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: 51]، وسماعُ الكلامِ مُعاينةً دلَّ عليه قولُهُ: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: 51]، وتبليغُ جبريلَ عليه السلام في صورةٍ مُعيَّنةٍ دلَّ عليه قولُهُ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: 51][2].

2) ﴿يَرْجُواْ﴾: (رجو) أصلانِ، يدلُّ أحدُهما على ناحيةِ الشَّيءِ[3]، وإشرافِه على مَهْواةٍ فيها مادَّةٌ نافعةٌ[4]، ويدلُّ الآخرُ على الأملِ[5]، والرَّجاءُ: ظنٌّ يقتضي حصولَ ما فيه مَسَرَّةٌ، قالَ تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ﴾ [النساء: 104]، وقد يُطلَقُ الرَّجاءُ على الخوفِ، وعليه حُمِلَ قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: 13]، ووجهُ ذلكَ: أنَّ الرَّجاءَ والخوفَ يتلازمانِ، فكلُّ راجٍ مُؤمِّلٌ ما يرجوهُ، خائفٌ فواتَهُ، ويقالُ: أرجَتِ النّاقةُ: دَنا نِتاجُها، وحقيقتُهُ: جعلَتْ لصاحبِها رجاءً في نفسِها بقُرْبِ نِتاجِها، والأُرْجوانُ: لونٌ أحمرُ؛ لأنَّهُ يُفرِّحُ بلونِه تفريحَ الرَّجاءِ[6]، ومعنى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: يطمعُ، و﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ على تقديرِ محذوفٍ، أي: حُسْنَ لقاءِ ربِّهِ، وقيلَ: أي: يخافُ سوءَ لقاءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحي).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (وحي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(6) الراغب، المفردات: (رجو)، والسمين، عمدة الحفاظ: (رجو).

جزاءِ ربِّهِ، وحملُ الرَّجاءِ على بابِه أجوَدُ لبَسْطِ النَّفْسِ إلى إحسانِ اللّه تعالى[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العملُ الصّالحُ واتِّقاءُ الشِّركِ وسيلةُ النَّجاةِ

يأمرُ اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يخاطبَ المشركينَ، ويقولُ لهُ: قُلْ لهؤلاءِ المشركينَ: إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكم مِنْ بني آدمَ، لا علمَ لي إلا ما علَّمَني اللّهُ بوَحْيِ منهُ، وإنَّ اللّهَ يوحي إليَّ أنَّ معبودَكم الَّذي يجبُ عليكُم أنْ تعبُدوهُ ولا تُشْرِكوا به شيئًا - معبودٌ واحدٌ، لا ثانيَ لهُ ولا شريكَ[2]، فمَنْ كانَ يأملُ حُسْنَ لقاءِ ربِّه بالثَّوابِ والجزاءِ الصّالحِ فليعمَلْ عملًا صالحًا موافقًا للشَّرعِ[3]، وليُخْلِصْ لربِّه العِبادةَ، ولا يُشْرِكْ به سواهُ، لا إشراكًا جليًّا كما فعلَ الَّذينَ كفروا بآياتِ ربِّهم ولِقائِهِ، ولا إشراكًا خفيًّا كما فعلَ أهلُ الرِّياءِ ممَّنْ يطلبُ بعملِه الدُّنيا[4].

وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ العملَ الصالحَ هو الموافقُ لشرعِ اللّه، من واجبٍ ومستحبٍّ، وهو الذي جَمَعَ بين صفتي الإخلاصِ والمتابعةِ للرسولِ ﷺ، وهو الذي يُنالُ به ما عند اللّه[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآيةِ:

الإعلامُ بأنَّ الرَّسولَ لا يعلمُ إلا ما يُعلِّمُهُ ربُّهُ

قولُهُ ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ استئنافٌ انتُقِلَ به مِنَ التَّنويه بسَعَةِ علمِ اللّه إلى إعلامِهم بأنَّ الرَّسولَ لم يُبْعَثْ للإخبارِ عنِ الحوادثِ الماضيةِ والقُرونِ الخاليةِ، ولا أنَّ مِنْ مُقتضى الرِّسالةِ أنْ يُحيطَ علمُهُ بالأشياءِ، ولكنَّهُ بشرٌ لا علمَ لهُ إلّا ما علَّمَهُ ربُّهُ[6].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 234.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 135.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 205.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 16/ 29.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 488.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 54.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾:

الاهتمامُ بمضمونِ المَقولِ

الأمرُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ للنَّبيِّ ﷺ لأنَّهُ جزءٌ مِنْ تبليغِ رسالةِ ربِّهِ[1]، وفي الإتيانِ بفعلِ الأمرِ إشارةٌ إلى أنَّهُ ﷺ إنَّما يأتي بما يأتي به بوَحْيٍ مِنَ اللهِ تعالى لا مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ، وفيه اهتمامٌ بمضمونِ المَقولِ، خصوصًا أنَّهُ مُتضمِّنٌ لقضيَّةِ القضايا؛ وهي توحيدُ اللهِ ﷻ.

الغرضُ من التعبيرِ بأسلوبِ القصرِ في الآيةِ:

الرسولُ ﷺ لا يتجاوزُ البشريَّةَ إلى العلمِ بالمُغيَّباتِ

القصرُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ مِنْ قصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ للقلبِ، أي: ما أنا إلا بشرٌ، لا أتجاوزُ البشريَّةَ إلى العلمِ بالمُغيَّباتِ[2]، وقيلَ: القصرُ مبنيٌّ على تنزيلِهم لاقتراحِهم عليه ﷺ ما لا يكونُ مِنْ بشرٍ مِثْلِهم منزلةَ مَنْ يعتقدُ خلافَهُ، أو على تنزيلِهم منزلةَ مَنْ ذُكِرَ؛ لزعمِهم أنَّ الرِّسالةَ الَّتي يدَّعيها ﷺ تُنافي ذلكَ[3]، وقيلَ: إنَّ المقصودَ أنْ يُقصَرَ عليه الإيحاءُ إليه ﷺ على معنى أنَّهُ ﷺ مقصورٌ على إيحاءِ ذلكَ إليه، لا يتجاوزُهُ إلى عدمِ الإيحاءِ كما يزعمونَ[4].

النكتةُ من تنكيرِ ﴿بَشَرٌ﴾:

النَّبيُّ ﷺ فردٌ مِنْ أفرادِ البشرِ

تنكيرُ ﴿بَشَرٌ﴾ في قولِه جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ للإفرادِ، أي: إنَّما أنا فردٌ مِنْ أفرادِ جنسِ البشرِ مِثْلِكم، وفي هذا التَّنكيرِ مبالغةٌ في اتِّصافِه ﷺ بالبشريَّةِ، وهو لم يتميَّزْ عنهُم إلا بالوَحْيِ الَّذي أوحاهُ اللهُ تعالى إليه.

سرُّ التَّقييدِ بقولِهِ: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾:

تأكيدُ الإعلامِ ببشريَّةِ الرَّسولِ ﷺ

في التَّقييدِ بوصفِ المِثْلِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4600.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 55.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 372.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 372.

﴿مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ تأكيدٌ للإعلامِ ببشريَّةِ الرَّسولِ ﷺ أي: إنَّما أنا فردٌ مِنْ أفرادِ جنسِ البشرِ مماثلٌ لكُم في البشريَّةِ، لا أدَّعي أنّي مَلَكٌ، وكلُّ ما آتيكم به مِنَ العلمِ والوَحْيِ مُستنِدٌ إلى وحْيِ ربّي إليَّ[1].

دلالة بناءِ الفعلِ ﴿يُوحَىٰ﴾ للمفعولِ:

الوَحْيُ لا يُتصوَّرُ إلّا منهُ سبحانَهُ

لمّا كانَ الوَحْيُ لا يُتصوَّرُ إلّا مِنْ ربِّ العالمينَ جلَّتْ قُدرتُهُ عُبِّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ إذ الفاعلُ معلومٌ، وفي بناءِ الفعلِ للمفعولِ تفخيمٌ لشأنِ أمرِ الوَحْيِ، أي: يوحَى إليَّ مِنَ اللهِ[2].

وجهُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُوحَىٰ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارعِ للاستمرارِ أو لحكايةِ الحالِ الماضيةِ

يحتملُ أنْ يكونَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ للاستمرارِ، ووجهُه: أنَّ الوَحْيَ إليه ﷺ لا يزالُ مُستمرًّا عندَ نزولِ هذه الآيةِ، واستمرَّ بعدَ نزولِها لسنواتٍ إلى وفاتِه - ﷺ -، ويحتملُ أنْ يكونَ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ[3]، ووجهُه: أنْ يُرادَ إيحاءُ المعنى المذكورِ في هذه الآيةِ خصوصًا، وقد فُرِغَ منهُ، فتكونُ صيغةُ المضارعِ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِ: ﴿إِلَيَّ﴾:

تفخيمُ شأنِ الموحى إليه ﷺ

يدلُّ التَّعبيرُ بـ﴿إِلَيَّ﴾ في قولِ الحقِّ تعالى ذكرُهُ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ على تفخيمِ شأنِه ﷺ بأنَّهُ يوحَى إليه مِنْ ربِّه ﷻ، أي: يوحَى إليَّ مِنَ اللهِ الَّذي خصَّني بالرِّسالةِ، كما أوحى إلى الرُّسُلِ قبلي ما لا غنى لأحدٍ عن علمِه واعتقادِه[4]، وفيه أيضًا تأكيدٌ لكونِ كلٍّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 234.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 153.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 181.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 153.

ما يُخبِرُ به ﷺ مِنَ الشَّرعِ والعلمِ مِنَ اللهِ جلَّ شأنُهُ، خصوصًا أنَّ المقامَ للرَّدِّ على المشركينَ المتعنِّتينَ بسؤالِهم لهُ ﷺ عن أمورٍ غيبيَّةٍ.

الغرض من تقديم ﴿إِلَيَّ﴾:

تعجيلُ المَسَرَّةِ ومراعاةُ حُسْنِ النَّظمِ

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيَّ﴾ في قولِ الحقِّ تعالى ذكرُهُ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ لتعجيلِ اغتباطِه ﷺ ومَسَرَّتِه بنزولِ الوَحْيِ عليه، ولأنَّ ما بعدَهُ فيه نوعُ طولٍ، فتأخيرُ ﴿إِلَيَّ﴾ يُخِلُّ برَوْنَقِ الكلامِ، ويُؤدّي إلى الفصلِ بينَ الفعلِ ومُتعلِّقِه.

بلاغةُ القصرِ في ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾:

قصرُ الإلـه على صفةِ الوحدانيَّةِ

القصرُ الذي طريقه ﴿أَنَّمَآ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ للقلبِ، والمعنى: يوحي اللهُ إليَّ توحيدَ الإلهِ، وانحصارَ وصفِه في صفةِ الوحدانيَّةِ دونَ المشاركةِ[1]، أي: لا يتجاوزُ معبودُكم بالحقِّ تلكَ الصِّفةَ الَّتي هي الوحدانيَّةُ إلى صفةٍ أخرى، كالتَّعدُّدِ فيها الَّذي تعتقدونَهُ أيُّها المشركونَ[2]، واصطفاء ﴿أَنَّمَآ﴾ دون سواها لأنها فيما لا يجهله المخاطب ولا ينكره.

سرُّ التقييد في وصفِ الإله بالواحدِ:

تأكيدُ وحدانيَّتِه جلَّ وعزَّ

لمّا أُدمِجَ في الكلامِ وصفُهُ ﷻ بالوحدانيَّةِ أُشيرَ إلى أنَّ إلهيَّتَهُ بالإطلاقِ، لا بالنَّظرِ إلى جعلِ جاعلٍ ولا غيرِ ذلكَ، فقيلَ: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أي: لا ينقسمُ بمجانسةٍ ولا غيرِها، قادرٌ على ما يريدُ، لا مُنازِعَ لهُ[3].

الغرض من التعبير بأسلوب التَّغليبِ في قوله ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾:

مناسبةُ التَّغليبِ لسياقِ الرَّدِّ على المشركينَ

في قولِه تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ تغليبٌ للمُخاطَبِ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 55.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 372 - 373.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154.

المتكلِّم؛ إذ لم يُقَلْ: (إنَّما إلهُنا إلهٌ واحدٌ)، والسِّرُّ في ذلكَ: أنَّهُ ﷺ موحِّدٌ للّه تعالى لا يعتقدُ لهُ شريكًا، والآيةُ خرجَتْ مَخْرَجَ الرَّدِّ على المشركينَ، فناسبَ أنْ يقالَ: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾؛ لأنَّهم يُشركونَ بهِ[1].

معنى الفاءِ ودلالتها في ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾:

الفاءُ لتفريعِ ما بعدَها على ما قبلَها

الفاءُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾؛ لتفريعِ ما بعدَها على الوحدانيَّةِ[2]، وهو مِنْ جملةِ الموحى به إليه ﷺ أي: يوحَى إليَّ بوحدانيَّةِ الإلهِ، وبإثباتِ البعثِ، وبالأعمالِ الصّالحةِ، فجاءَ النَّظمُ بطريقةٍ بديعةٍ في إفادةِ الأُصولِ الثَّلاثةِ؛ إذ جُعِلَ التَّوحيدُ أصلًا لها، وفُرِّعَ عليه الأصلانِ الآخرانِ، وأُكِّدَ الإخبارُ بالوحدانيَّةِ بالنَّهيِ عنِ الإشراكِ بعبادةِ اللّه تعالى، وحصلَ معَ ذلكَ ردُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، وهو أسلوبٌ بديعٌ[3].

سرُّ التعبيرِ بـ﴿كَانَ﴾ في الجملة الفعلية ﴿كَانَ يَرْجُواْ﴾:

الدَّلالةُ على الاستمرارِ والاستدامةِ

الرَّجاءُ: توقُّعُ وصولِ الخيرِ في المستقبلِ، والمرادُ بلقائِه تعالى: كرامتُهُ بالثَّوابِ والجزاءِ الصّالحِ، وإدخالُ الماضي على المستقبلِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللّائقَ بحالِ المؤمنِ الاستمرارُ والاستدامةُ على رجاءِ اللِّقاءِ، أي: فمنِ استمرَّ على رجاءِ كرامتِه تعالى فليعمَلْ عملًا صالحًا في نفسِه، لائقًا بذلكَ المرجوِّ، كما فعلَهُ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ[4].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 107.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 181.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 55.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 251، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 373.

غرض الإيجازِ في ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾:

الإيجازُ بحذفِ المضافِ

في قولِه ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ إيجازٌ بديعٌ بحذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: (فمَنْ كانَ يُؤمِّلُ حُسْنَ لقاءِ ربِّهِ، وأنْ يلقاهُ بعدَ البعثِ لقاءَ رِضًا وقَبولٍ)[1]، وإنَّما قُدِّرَ ذلكَ المضافُ؛ لأنَّ حُسْنَ اللِّقاءِ هو المرجوُّ لا اللِّقاءُ؛ إذ البعثُ مُحقَّقٌ سواءٌ كانَ راجيًا أو لا[2].

سر إيثار لفظِ الرَّبِّ في ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾:

ملاءمةُ لفظِ الرَّبِّ لمقامِ الرَّجاءِ

جيءَ بلفظِ الرَّبِّ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾؛ تنبيهاً على أنَّهُ هو المُحسِنُ إلى كلِّ أحدٍ بالتَّفرُّدِ بخَلْقِه ورزقِه، لا شريكَ لهُ في شيءٍ مِنْ ذلكَ؛ لأنَّهُ لا مالكَ إلّا وهو قاهرٌ لمملوكِه على لقائِه، مُصرِّفٌ لهُ في أوامرِه في صباحِه ومَسائِه[3]، إضافةً إلى ما في لفظِ الرَّبِّ المُنبِئِ عنِ الإحسانِ مِنَ المناسبةِ لمقامِ رجاءِ حُسْنِ اللِّقاءِ، ونَيْلِ الرِّضا والقَبولِ.

بلاغة وضعِ المُظْهَرِ موضعَ المُضمَرِ في ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾:

زيادةُ التَّقريرِ وبيانُ علَّةِ الأمرِ والنَّهيِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فمَنْ كانَ يرجو لقاءَهُ فليعمَلْ عملًا صالحًا)؛ لأنَّ الضَّميرَ حينئذٍ يرجعُ إلى لفظِ الإله في قولِه جلَّتْ حكمتُهُ فيما سبقَ: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، لكنْ وُضِعَ المُظْهَرُ موضعَ المُضمَرِ معَ التَّعرُّضِ للفظِ الرُّبوبيَّةِ، فقيلَ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ، وللإشعارِ بعلِّيَّةِ الرُّبوبيَّةِ للأمرِ والنَّهيِ ووجوبِ الامتثالِ فعلًا وتَرْكًا[4].

معنى الفاءِ واللّامِ ودلالتهما في ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾:

الفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، واللّامُ للأمرِ

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ واقعةٌ في جوابِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 750.
(2) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 140، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 181.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 251.

الشَّرطِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، واللّامُ في ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ للأمرِ، وهي تفيدُ وجوبَ أنْ يعملَ الرّاجي حُسْنَ لقاءِ ربِّه عملًا صالحًا يُقرِّبُهُ إليهِ، ويُؤهِّلُهُ لنَيْلِ مقامِ الزُّلْفَى والكراماتِ.

الغرض من التعبير بالأمرِ بالعملِ الصّالحِ:

إصلاحُ العملِ في مقابلةِ إحسانِ الرَّبِّ

لمّا كانَ الجزاءُ مِنْ جنسِ العملِ كانَ الواجبُ على العبدِ الإخلاصَ في عملِهِ، كما كانَ عملُ ربِّه في تربيتِه بالإيجادِ وما بعدَهُ، ولذلكَ قيلَ: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾[1]، وقد اصطفى النَّظم الكريم من صور المضارع المقترن بلام الأمر؛ إعلامًا بالتنفيذ الفوري الحاضر للعمل الصالح، ليكون آية على حسن ظن الراجي بربه.

سر التقييد بالمفعول المطلق وتنكيره في ﴿عَمَلًا﴾:

تأكيدُ الإتيانِ بالعملِ الصّالحِ

لمّا كانَ المقامُ لإيجابِ أنْ يعملَ العبدُ مِنَ الأعمالِ ما يُنجيه يومَ القيامةِ، ويرجوَ به حُسْنَ لقاءِ ربِّه بالرِّضا والقَبولِ، ويكونَ في مقابلةِ إحسانِ الرَّبِّ إليهِ، ويُصدِّقَ به إيمانَهُ باللّه تعالى وبالبعثِ والنُّشورِ ونحوِ ذلكَ مِنْ أركانِ الإيمانِ؛ أُكِّدَ هذا الإيجابُ بالإتيانِ بالمصدرِ في قولِه ﷻ: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾[2]، وتنكيره للتَّقليلِ، أي: (فليعمَلْ عملًا صالحًا ولو كانَ قليلًا)، والعملُ الصّالحُ هو ما يأمرُ به الشَّرعُ مِنْ أصولِ الدّينِ وفُروعِهِ؛ مِنَ التَّوحيدِ وغيرِه مِنْ أعمالِ القلبِ والبَدَنِ والمالِ؛ ليسلَمَ العبدُ مِنْ عذابِ اللّه تعالى[3]، وفي حَملِ التَّنكيرِ على التَّقليلِ توسيعٌ لبابِ الرَّجاءِ، وإطماعٌ بالنَّجاةِ لَمَنْ فازَ بالتَّوحيدِ وخُتِمَ لهُ بهِ، وفي وصفِ العملِ بالصَّلاحِ حثٌّ للعبدِ على الحِرْصِ على موافقةِ عملِه لما يُحِبُّهُ الشَّرعُ ويرضاهُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 154.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾:

الجمعُ بينَ التَّوحيدِ والإخلاصِ في الطّاعةِ

الواوُ في قولِ اللّه جلَّ وتباركَ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ للعطفِ، فتكونُ الآيةُ جامعةً لخلاصتيِ العلمِ والعملِ؛ وهما التَّوحيدُ والإخلاصُ في الطّاعةِ[1].

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾:

الاستمرارُ على عدمِ الإشراكِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ المجزومِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ على وجوبِ الاستمرارِ على عدمِ الإشراكِ باللّه ﷻ إلى أنْ يَلْقَى العبدُ ربَّهُ ﷻ سواءٌ كانَ الشِّركُ شِرْكًا أكبرَ بالكفرِ والرِّدَّةِ، أو شِرْكًا أصغرَ بالرِّياءِ؛ إذ ينبغي على العبدِ أنْ يراقبَ نيَّتَهُ على الدَّوامِ، ويُخلِصَ عملَهُ للّه ﷻ ولا يجعلَ في عملِه رياءً ولا سُمعةً[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الشِّركِ في ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾:

مراعاةُ التَّقابلِ بينَ الشِّركِ والتَّوحيدِ

جيءَ بالنَّهيِ عنِ الإشراكِ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (ولا يَكْفُرْ بربِّه)؛ رعايةً للتَّقابلِ بينَ الشِّركِ المنهيِّ عنهُ في ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ وبينَ التَّوحيدِ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وليكونَ النَّهيُ عنِ الإشراكِ مُؤكِّدًا لوصفِه ﷻ بالوحدانيَّةِ، ولأنَّ الشِّركَ يعمُّ الشِّركَ الأكبرَ والأصغرَ، وكلاهما منهيٌّ عنهُ، وينبغي على العبدِ الرّاجي حُسْنَ لقاءِ ربِّه اجتنابُهُ.

معنى الباءِ ودلالتها في ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾:

الباءُ للسَّببيَّةِ أو بمعنى (في)

الباءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ سببيَّةٌ، أي: ولا يُشْرِكْ بسببِ عبادةِ ربِّه أحدًا، وقيلَ: الباءُ بمعنى (في)، والمعنى: ولا يُشْرِكْ في عبادةِ ربِّه أحدًا[3]، ويحتملُ السياقُ أن تكون

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 295.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 504، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 155.
(3) السمين، الدر المصون: 7/ 559.

الباءُ بمعنى "مع"، والمعنى: (ولا يُشْرِكْ مع عبادةِ ربِّه أحدًا في هذه العبادة)؛ بحيث تكون متمحِّضة لربه.

سر إضافةِ العِبادةِ إلى الرَّبِّ:

ملاءمةُ الإضافةِ لسياقِ النَّهيِ عنِ الإشراكِ

أُضيفَتِ العِبادةُ إلى لفظِ الرَّبِّ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ لما في هذه الإضافةِ مِنْ تشريفِ العِبادةِ بكونِها للّه ﷻ المعبودِ الحقِّ، ومِنَ الدَّلالةِ على اختصاصِ العِبادةِ به جل وعز كأنَّهُ قيلَ: ولا يُشْرِكْ أحدًا بعِبادةِ ربِّه المختصَّةِ به الَّتي لا ينبغي صَرْفُها لغيرِه، كما لو قلتَ لعمرٍو: لا تأخُذْ مالَ زيدٍ، أي: لا تأخُذْ مالَهُ المختصَّ به المملوكَ لهُ.

علةُ إظهارِ لفظِ الربِّ في مقامِ الإضمارِ:

كمالُ التَّقرُّرِ في الذِّهنِ وبيانُ علَّةِ العِبادةِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ولا يُشْرِكْ بعبادته أحدًا)؛ اكتفاءً بما سبقَ في قولِه جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى ما في النَّظمِ - وهو قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ - لما في الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ وتكرارِ لفظِ الرَّبِّ مِنْ كمالِ التَّقرُّرِ في الذِّهنِ، وللإشارةِ إلى علَّةِ العِبادةِ، وهي كمالُ خضوعِ العبدِ لربِّه وإظهارِ التذلل له، وإبرازُ رُبوبيَّةِ اللّه ﷻ لخَلْقِه المستحقِّ للعبادة، وعُلِمَ مِنْ ذلكَ أنَّ لفظَ الرَّبِّ أوقعُ هنا مِنْ سائرِ الأسامي السّاميةِ[1]، فيكونُ أبلغَ ممّا لو قيلَ مثلًا: (ولا يُشْرِكْ بعبادةِ اللّه أحدًا).

الغرض من تقديمِ ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ على ﴿أَحَدًا﴾:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ ومُراعاةُ الفاصلةِ

قُدِّمَ ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ على المفعولِ ﴿أَحَدًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ للاهتمامِ بكونِ النَّهيِ عنِ الإشراكِ مُتعلِّقًا بعِبادةِ اللّه جلَّ وتباركَ ولِما في تأخيرِ ﴿أَحَدًا﴾ مِنْ مُراعاةِ ملاءمةِ الفاصلةِ لما قبلَها مِنَ الفواصلِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 251، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 181.

النكتةُ من تنكيرِ ﴿أَحَدًا﴾:

التَّنكيرُ لإفادةِ العُمومِ

لمّا كانَ المقامُ للنَّهيِ عنِ الإشراكِ بعبادةِ اللّه - جلَّتْ قُدرتُهُ - بولِغَ في النَّهيِ بتنكيرِ لفظِ ﴿أَحَدًا﴾ في قولِه - ﷻ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ لما في التَّنكيرِ مِنْ إفادةِ العُمومِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّهيِ تَعُمُّ، أي: ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّه أيَّ أحدٍ كانَ.

بلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ في الآيةِ:

ردُّ عَجُزِ السّورةِ على صَدْرِها

القصرُ الأوَّلُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو إضافيٌّ للقلبِ، أي: ما أنا إلا بشرٌ، لا أتجاوزُ البشريَّةَ إلى العلمِ بالمغيَّباتِ، وأُدمِجَ في هذا أهمُّ ما يوحَى إليه وما بُعِثَ لأجلِهِ؛ وهو توحيدُ اللّه والسَّعْيُ لما فيه السَّلامةُ عندَ لقاءِ اللّه تعالى، وهذا مِنْ ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، مِنْ قولِه في أوَّلِ السّورةِ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: 2] إلى قولِه: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: 5][1]، وقيلَ: انطبقَ آخرُ السّورةِ على أوَّلِها بوصفِ كلماتِ اللّه ثمَّ ما يوحَى إليه - وكلٌّ منهُما أعمُّ مِنَ الكتابِ - بالأقوَميَّةِ؛ للدُّعاءِ إلى الطَّريقِ الأقوَمِ، وهو التَّوحيدُ عنِ الشَّريكِ الأعمِّ مِنَ الولدِ وغيرِهِ، والإحسانُ في العملِ، معَ البشارةِ لِمَنْ آمنَ، والنِّذارةِ لِمَنْ أعرضَ عنِ الآياتِ والذِّكرِ، فبانَ بذلكَ أنَّ للّه تعالى بوحدانيَّتِه وتمامِ علمِه وشُمولِ قُدرتِه صفاتِ الكمالِ، فصحَّ أنَّهُ المُستحِقُّ لجميعِ الحمدِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَشَرُ والنّاسُ:

الفرقُ بينَ البَشَرِ والنّاسِ: أنَّ قولَنا: (بَشَرٌ) يقتضي حُسْنَ الهيئةِ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 55.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 155.

البَشَرُ مِنْ حُسْنِ الهيئةِ أوِ الظُّهورِ، والنّاسُ مِنَ الحركةِ

لأنَّهُ مُشتقٌّ مِنَ البِشارةِ، وهي حُسْنُ الهيئةِ، يقالُ: رجلٌ بَشيرٌ، إذا كانَ حسنَ الهيئةِ، فسُمّيَ النّاسُ بَشَرًا؛ لأنَّهم أحسنُ الحيوانِ هيئةً، ويجوزُ أنْ يقالَ: إنَّ قولَنا: (بَشَرٌ) يقتضي الظُّهورَ، وسُمّوا بَشَرًا؛ لظُهورِ شأنِهم، ومنهُ قيلَ لظاهرِ الجِلْدِ: بَشَرةٌ، وأمّا قولُنا: (النّاسُ) فيقتضي النَّوْسَ؛ وهو الحركةُ.

والنّاسُ جمعٌ، والبَشَرُ واحدٌ وجمعٌ، وفي القُرآنِ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ويقالُ: محمَّدٌ خيرُ البَشَرِ، أي: النّاسِ كلِّهم، ويُثنَّى البَشَرُ، فيقالُ: بَشَرانِ، وفي القُرآنِ: ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: 47][1].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 101.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»